الفصل الثانى

العلاقات الخارجية للدولة الإسلامية

منهجيّة دراسة العلاقات الدولية في الإسلام تستمد من المصدرين الأساسيين للإسلام: (القرآن والسنة) وهي التي تشكل إطارًا مرجعيًّا ومعيارًا عامًّا من المفترض أن تستند إليه النظريات والرؤى التي تتبناها الدول الإسلامية في علاقاتها الدولية.

تتفق نظرة فقهاء النظام السياسي الإسلامي على أن من أهم الوظائف التي تقوم بها الدولة الإسلامية: الدعوة إلى الإسلام، ونشر تعاليمه بين البشر، فالدولة الإسلامية بطبيعتها دولة عالمية التوجه، تسمو على الإقليمية والعنصرية القائمة على قومية معينة.

مبادئ العلاقات الدولية في الإسلام:

١- **العدالة:** تعني العدالة في أبسط معانيها: إعطاء كلّ ذي حق حقه دون تأثر بمشاعر الحب لصديق، أو الكراهية لعدو، وتقتضي العدالة في

مجال العلاقات الدولية أن تبنى كافة العهود والمواثيق والاتفاقات الدولية على أساس: العدالة لكافة الأطراف، وعدم الجور على طرف فيها من جرّاء هذا الاتفاق أو تلك المعاهدة.

٢- **المساواة:** تتيح المساواة فرصة متساوية للحصول على الحقوق الأساسية للإنسان والتمتع بها في ضوء مقاصد الشريعة فإذا توافرت الفرص المتساوية أمام الجميع يكون التفاوت بينهم بعد ذلك راجعًا إلى ما يبذلونه من جهد وعمل، وإلى ما يحققونه من إنتاجية متميزة، وإلى ما يملكونه من قدرات على التحصيل العلمي والتقدم الحضاري، وأن الأكرم هو الأتقى الذي يعمل صالحًا ولا يفسد في الأرض.

إن مبدأ المساواة قد يفرض على الدولة الإسلامية في سياستها الخارجية ألا تقبل أي وضع ينتقص من مصالحها أو حقوقها الأساسية، فالإسلام يحث أتباعه على البر والإحسان وبذل المعروف في العلاقات الإنسانية لجميع البشر ، إلا من حارب الله ورسوله وتربص بالمسلمين الدوائر.

٣- **الحرية:** ينبع مبدأ الحرية من قيمة المساواة بين بني البشر التي قررها الإسلام، فانتماؤهم إلى أصل واحد يقتضي العدل وعدم الإكراه، ومن هنا فإن حالة الحرب في العلاقات الخارجية للدولة الإسلامية ينظر لها على أنها حالة ضرورة.

وفي ضوء هذا المضمون الإسلامي للحرية يمكننا الإشارة إلى ما يلي:

أ. الإقرار بسياسة الأبواب المفتوحة في محيط العلاقات الدولية، ورفض سياسة العزلة والانغلاق إلا لضرورة (والضرورة تقدر بقدرها).

ب. بطلان الأوضاع التي تنشأ نتيجة للقسر والإكراه، حتى لو تكرست عبر اتفاقيات أو معاهدات أو بحكم الأمر الواقع.

٤- **الوفاء بالعهود والمواثيق:** حتى لا تظل قيم العدالة والمساواة والحرية مجرد أمنيات من الضروري ترجمتها إلى ممارسات فعلية على أرض الواقع.

٥- **مراعاة المصلحة العامة للدولة الإسلامية:** جاء الأمر في القرآن الكريم "بالتعاون" المبني على فضائل الأخلاق، الهادف إلى تحقيق الخير الإنساني العام والقرب من الله تعالى، كما جاء فيه أيضًا النهي

عن (التعاون) المؤدي إلى انتهاك تلك الفضائل، الهادف إلى الاعتداء أو إلحاق الأذى بالآخرين.

العلاقات الخارجية للدولة الإسلامية حالة السلم:

إن تأسيس علاقات المسلمين بغيرهم على الدعوة من شأنه أن يوسع نطاق السلم وأن يعزز-بالتالي-الحاجة إلى الأدوات السليمة في التعاملات الخارجية للدولة الإسلامية. ومرد ذلك إلى أن الوفاء بمقتضى الالتزام القائم في حق الدولة الإسلامية بنقل مضمون الدعوة إلى غير المسلمين في جميع أنحاء المعمورة وتبصيرهم بأحكامها في غير ما ضغط أو إكراه.

مشروعية المعاهدات: ومما يدل على مشروعية معاهدة الكفار والمشركين قوله تعالى: ﴿ وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلۡمِ فَٱجۡنَحۡ لَهَا وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴾.

وأما مشروعية ذلك من السنة النبوية فقد تقدم ما يدل على ذلك كصلح الحديبية وغيره.

مدة المعاهدة : للعلماء في مدة المعاهدة ثلاثة أقوال:

والقول الراجح : أنه يجوز أن تكون المدة غير محددة.

متى تنتهي المعاهدة ؟ تنتهي المعاهدة:

١- بانتهاء مدتها إن كانت مؤقتة.

٢- أو إذا نقضها الطرف الآخر كلياً أو جزئياً.

فوائد المعاهدات: يستفيد المسلمون من إجراء المعاهدات مع الكفار في ترك القتال، فالمتأمل في فوائد صلح الحديبية التي تحققت مع تردد كثير من الصحابة في جدواه ابتداء، يعلم قطعاً أنه في السلم يجد الحق فرصة للانتشار لا تكون متاحة في حالة الحرب.

أهم أدوات العلاقات الدولية في الإسلام وقت السلم :

١- تبادل الرسل والسفارات كأداة في العلاقات الخارجية للدولة الإسلامية.

٢- التبادل التجاري والاقتصادي كأداة في العلاقات الخارجية الإسلامية.

٣- التفاوض كأداة في العلاقات الخارجية للدول الإسلامية.

٤- التعاهد كأداة في العلاقات الخارجية للدولة الإسلامية.

وخلاصة القول: أن واجب الدولة الإسلاميّة عدم مخالفة تعاليم الإسلام في جميع اتفاقاتها ومعاهداتها، وتُعدُّ سياسة المملكة العربية السعودية مثالاً يُحتذى، فكثيرًا ما تتحفظ المملكة في قبول بعض بنود هذه المعاهدات والاتفاقات الصادرة عن هيئة الأمم المتحدة أو إحدى مؤسساتها.

العلاقات الخارجية للدولة الإسلامية في حالة الحرب:

الحرب مظهر من أهم مظاهر القوة، ولم يزل القوي مسموع الكلمة، نافذ الرأي، مرهوب الجانب، ولم يزل منطق القوة هو المسيطر في علاقات الدول والجماعات والأفراد، وأما الضعيف فلا يكاد يسمع قوله، ولا يؤبه له في الواقع، وإن كان الحق والعدل في جانبه، ولن يستطيع حماية مصالحه وحقوقه المشروعة إن بقي على ضعفه، وقد جاءت مشروعية الجهاد في الإسلام لحماية المصالح الدينية والدنيوية للمسلمين، وعلى اعتبار أنه وسيلة تحمى به الحقوق والمصالح لا لكونه غاية في حد ذاته.

المسلمون مطالبون بضرورة الإعداد حسب استطاعتهم لكل أنواع القوة العسكرية والاقتصادية والعلمية، كي يرهب الأعداء جانبهم، كما قال تعالى: ﴿ وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ ﴾.

ومن المقولات المشهور في عالم اليوم: (إذا أردت السلام، فاستعد للحرب).

القواعد المنظمة لسير القتال وقت الحرب في الإسلام:

قبل الحديث عن القواعد المنظمة لسير القتال وقت الحرب في الإسلام، نبين مسوغات الحرب في الإسلام وهي على النحو التالي:

١- رد العدوان والدفاع عن الدين والنفس والأهل والمال والوطن.

٢- تأديب ناكثى العهد من المعاهدين، أو الفئة الباغية على جماعة المسلمين.

٣- تأمين حرية الاعتقاد للمسلمين، ورد من يفتنونهم عن دين الإسلام.

٤- إغاثة المظلومين من المسلمين أينما كانوا.

٥- حماية الدعوة.

من أهم تلك الأحكام الفقهية التعلقة بموضوع العلاقات الخارجية للدولة الإسلامية:

١- الأصل في الجهاد في الإسلام أنه فرض كفاية متى ما قام به البعض سقط الإثم عن الباقي، ولكن يكون الجهاد فرض عين على كل مسلم مكلف قادر إذا دهم العدو بلده، فإن لم يكن أهل تلك البلد لديهم ما يكفي لرد العدوان، يتعين الجهاد على الأقرب فالأقرب منهم حتى يندفع العدو.

٢- يجب في الجهاد أخذ الإذن من ولي أمر المسلمين، إلا في حالة أن يفاجئ العدو البلد الذي يقيم فيه المسلم، فالمصلحة تقتضي هنا مجابهة العدو من دون أخذ الإذن؛ لتعذر الاستئذان حينذاك، ولأنه يكون من المتعين على كل قادر مقاتلة الأعداء.

٣- يجب استئذان الوالدين في الجهاد، إلا في حالة كون الجهاد فرض عين.

٤- يخير أمير الجيش الكفار غير المعاهدين بين ثلاثة أمور: الدخول في الإسلام، أو دفع الجزية مع بقائهم على دينهم، أو القتال كما ورد في حديث بريدة عن النبي ﷺ الذي خرجه مسلم في صحيحه.

٥- يحرم التمثيل بجثث قتلى العدو، فحالة الحرب في الإسلام لا تبرر الخروج على قواعد العدل والإنصاف،كما لا يجوز قطع الأشجار المثمرة لغير حاجة، ولا يجوز قتل غير المقاتلين؛ككبار السن والنساء والأطفال.

٦- حسن معاملة الأسرى وإطعامهم وكسوتهم وعدم إكراههم على الإسلام وتحريم تعذيبهم.

قواعد النظام السياسي في الإسلام

(الشورى-العدل-المساواة-الحرية)

أولاً : الشورى

الشورى اصطلاحاً: الرجوع إلى أهل الرأي والاختصاص في الأمور التي لا يوجد فيها نص شرعي واضح ؛ للوصول إلى الأصلح للأمة والأنفع لها.

والمراد بهذا أن الشورى تكون بالرجوع إلى آراء أهل الخبرة من أفراد الأمة ممن لهم معرفة وتجربة، أو من أهل الاختصاص بالأمر موضوع الشورى كأن يكونوا أطباء إن كان طبياً، أو عسكريين إن كان عسكرياً، أو إداريين إن كان إدارياً، وهكذا.

ومن أدلة مشروعية الشورى:

قول الله تعالى: ﴿ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ ﴾

ومن فوائد الشورى :

١- إن الأمر إذا تم عن طريق المشاورة تقل فيه نسبة الخطأ، وتكثر الإصابة، فإن الحاكم مهما بلغ من رجاحة عقله وسعة إطلاعه، وكثرة تجاربه، فهو محدود بنقصه البشري الذي لا ينفك عنه.

٢- الشورى في الحقيقة توزيع للمسؤولية، فلا تقع نتيجتها مهما كانت على كاهل واحد بعينه، بل يتقاسمها الجميع، فلا يتلاوم الناس ويتنافرون ويتشاجرون إن كانت نتيجتها على خلاف ما يريدون.

٣- المجتمع الذي تطبق فيه الشورى على الطريقة الشرعية يشعر فيه الأفراد بالمسؤولية تجاه قضاياهم الدنيوية والدينية.

٤- الشورى وقاية للمجتمع من الاضطراب وعدم الاستقرار، فهي تولد الثقة بين الحاكم والمحكوم، فتزول الأحقاد، ويذهب التدابر والتنازع، فالشورى صمام أمان وحاجز عن الفتن والقلاقل؛ لأنه من خلالها تدرس المسائل والقضايا من أهل الحل والعقد والعلماء والخبراء، فإما أن يؤخذ بها، وإما إن تُرد، وعلى كلا الحالين ترتاح النفوس، وتزول الضغائن.

تطبيقات الشورى في العهد النبوي والخلفاء الراشدين:

- مشاورته لأصحابه يوم بدر، كما ورد في حديث أنس رضي الله عنه قال: (أن رسول الله ﷺ شاور حين بلغه إقبال أبي سفيان قال فتكلم أبو بكر، فأعرض عنه، ثم تكلم عمر، فأعرض عنه، فقام سعد بن عبادة

فقال: إيانا تريد يا رسول الله، والذي نفسي بيده لو أمرتنا أن نخيضها البحر لأخضناها، ولو أمرتنا أن نضرب أكبادها إلى برك الغماد لفعلنا، قال: فندب رسول الله ﷺ الناس فانطلقوا حتى نزلوا بدراً...).

- كان أبو بكر رضي الله عنه إذا ورد عليه خصم نظر في كتاب الله فإن وجد فيه ما يقضي به قضى به بينهم، فإن لم يجد في الكتاب نظر هل كانت من النبي ﷺ فيه سنة؟ فإن علمها قضى بها، وإن لم يعلم، خرج فسأل المسلمين فقال: أتاني كذا وكذا، فنظرت في كتاب الله، وفي سنة رسول الله ﷺ فلم أجد في ذلك شيئا فهل تعلمون أن نبي الله ﷺ قضى في ذلك بقضاء فربما قام إليه الرهط فقالوا: نعم، قضى فيه بكذا وكذا فيأخذ بقضاء رسول الله ﷺ. . . وإن أعياه ذلك دعا رؤوس المسلمين وعلماءهم فاستشارهم فإذا اجتمع رأيهم على الأمر قضى به.
- وكان عمر بن الخطاب ﷺ يفعل ذلك، فإن أعياه أن يجد في القرآن والسنة نظر هل كان لأبي بكر ﷺ فيه قضاء؟ فإن وجد أبا بكر ﷺ قد قضى فيه بقضاء قضى به، وإلا دعا رؤوس المسلمين وعلماءهم فاستشارهم، فإذا اجتمعوا على الأمر قضى بينهم.

حكم الشورى:

اختلف العلماء في حكم الشورى أواجبة هي أم مستحبة أم في الأمر تفصيل؟ ويوجد في ذلك ثلاثة آراء والقول الراجح:

أن الشورى تكون واجبة فيما أشكل من أحكام، وتكون مستحبة فيما لم يشكل من الأحكام.

نطاق الشورى:

يقصد بنطاق الشورى الأمور التي تعرض على أهل الشورى لينظروا فيها، ثم يصلوا فيها إلى نتيجة، فهل تلك الأمور مطلقة في كل شيء أم مقيدة؟

لا يختلف العلماء في أن نطاق الشورى هو في الأمور الاجتهادية التي لا يوجد فيها نص صريح وواضح من القرآن أو السنة الصحيحة، وعليه فلا يجوز أن ينظر أهل الشورى في مسألة تحريم الخمر، أو إباحة الربا، أو الزنا، أو إسقاط الحدود الشرعية، أو إسقاط وجوب الصلاة أو الصيام .. الخ، فهذه الأمور وأشباهها بعيدة عن ميدان الشورى ونطاقها ولا تدخل فيها.

شروط أهل الشورى:

١ـ الإسلام.

٢ـ التكليف وذلك بأن يكون المرء عاقلاً بالغاً.

٣ـ العدالة بمعنى أن تكون غالب أحواله الطاعة والاستقامة على أوامر الدين، مع اجتناب الكبائر، والإصرار على الصغائر.

٤ـ العلم المتضمن الإلمام بأمور الشريعة الإسلامية.

٥ـ فهم الواقع ومعرفته، بما يعني تحقق وجود التجربة العملية، التي من لوازمها في الغالب الحكمة وسداد الرأي.

ثانياً: العدل

معنى العدل: إعطاء كل ذي حق حقه من دون نقص أو تعدٍّ، كما يعني الإنصاف في المعاملة من غير إفراط ولا تفريط.

قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا وَإِذَا حَكَمۡتُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحۡكُمُواْ بِٱلۡعَدۡلِۚ ﴾ .

والأمر بالعدل هنا للوجوب، وهو شامل للناس جميعاً المسلم منهم والكافر .

وقال ﷺ: (إن المقسطين عند الله على منابر من نور عن يمين الرحمن -عز وجل-وكلتا يديه يمين، الذين يعدلون في حكمهم وأهليهم وما وُلُّوا).

للعلماء عناية بالعدل لأنه أساس صلاح الإنسانية وسعادتها، فإن تحقق العدل في حياة البشرية سعدت واستقرت.

وليس للعدل مجالات محددة في الإسلام بل هو واجب في كل نواحي الحياة المختلفة: السياسية والاقتصادية والاجتماعية، كما أنه واجب التطبيق على مستوى المؤسسات كالقضاء والجيش والتعليم، وعلى مستوى الأفراد بدون استثناء.